الشعر الأندلسي

خصائصه الفنية ومكانته عند الأندلسيين

كان الشعر على مرّ العصور وسيلةً ترفع صاحبها إلى أسمى مراتب الدولة بغضّ النظر عن عقيدة الشاعر ودينه، وقد حظيَ الشعر عند الاندلسيين بمكانةٍ عظيمةٍ، وكان للشعراء من ملوكهم وجاهةً، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس العظماء من الملوك، وهذا الأمر لم يكن مختلفاً كثيراً عما كان عليه حال الشعراء في المشرق العربي.

لقد أعجب شعراء الأندلس بشعراء المشرق العربي سواء أكانوا شعراءَ جاهليين أو إسلاميين أو عباسيين، لذا فقد تشابهت خصائص الشعر الأندلسي والشعر العربي ؛ لأن شعراء الأندلس كانوا في غالب الأمر مقلدين لشعراء المشرق العربي، ويبدو ذلك واضحاً في ألقاب الشعراء، إذ لقبوا "ابن هانئ الاندلسي" بـ "متنبي الاندلس"، و"ابن زيدون" بـ "بحتري الاندلس"، وقد امتاز الشعر الاندلسي في مجمله بالمميزات الآتية:

1. من حيث الألفاظ والتراكيب:
جاءت ألفاظ الشعرالاندلسي سهلة رقيقة عذبة وخيالية ليس فيها أثر للغموض أو الالتواء أو الخلل؛ لأنهم لم يحمّلوا التراكيب ما لاتطيق من المعاني المزدحمة، فجاء أكثر شعرهم جارياً مع الطبع من غير تكلفٍ أو تصنّع.
2. المعاني والأفكار:
تتميز معاني الشعر الاندلسي بأنها واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء وتتميز أيضاً بالخلوِ من المبالغة في طلب المعاني، ويلاحظ في شعرهم الكثير من المعاني المبتكرة والافكار المخترعة التي لم يكن للشعر العربي عهد بها.
3. الصور والأخيلة:
أبدع الأندلسيون في هذا الجانب أيما إبداع وكان لهم فيه الظهور والتفوق، فقد برعوا في التصوير وأغرقوا في التخييل، كما وقد تعاطف شعراء الاندلس مع الطبيعة الخلابة وانعكس ذلك على شعرهم فجاؤوا بالتشبيهات الرائعة والاستعارات الدقيقة والتشخيص الممتع.
4. من حيث الأوزان والقوافي:
لقد أكثر الأندلسيون من نظم الشعر في البحور الخفيفة والقصيرة ؛ لتناسبها مع حالة الترف واللهو وحب الغناء الذي انتشر في مجتمعهم، فجاؤوا بمقطوعاتٍ رشيقة حتى ضاق العروض ببحوره عما تقتضيه رقة الحضارة وانتشار الغناء لذا فقد استحدثوا الموشحات والازجال.

الظروف أوالمؤثرات العامة التي خضع لها الأدب والشعر الأندلسي

1. الظروف السياسية السائدة والتي اتسمت بالاضطراب والتنافس بين القبائل العربية المختلفة وقبائل البربر فضلاً عن الاستمرار في عمليات الفتح ومحاربة الإسبان.
2. التأثير المشرقي، وذلك لأن أكثر سكان الاندلس كانوا من النازحين عن بلاد المشرق، وكانت مخيلتهم تحفظ الذكريات عن بلادهم التي غادروها، لذلك فاضت أشعارهم بالمشاعروالأحاسيس الجياشة. والمقصود بالتأثير المشرقي تأثير الثقافة العربية المشرقية وتسرّبه الى الاندلس من خلال طريقين، الأول: عن طريق أولئك الذين وفدوا إلى الاندلس من علماء الشرق وأدبائه والفنانين الذين حملوا معهم ثروةً ضخمةً من التراث العربي القديم والمحدث فضلاً عن أصول الحضارة والعادات الاجتماعية، والطريق الثاني: رحلة الاندلسيين

الى المشرق العربي طلباً للعلم والأدب ومن ثم عودتهم مع ما حصلوا عليه من الكتب في العلوم والأدب والفن.

إن ما عهدته الاندلس من الظروف الآنفة الذكر يشمل عهد فتح الاندلس (92 – 138هـ) بقيادة طارق بن زياد ثم أعقبه عهد الولاة التابعين لملوك بني أمية في دمشق، وقد كان أول والٍ عبدالعزيز بن موسى بن نصير وآخر الولاة يوسف الفهري.

ولابدّ لنا من التعرف بأبرز شعراء الأندلس بحسب تعاقب العصور والمراحل والأحداث التاريخية بدءاً بالعهد الأموي المتمثل بالقرنين الثاني والثالث الهجريين (138 – 399هـ)، ويبدأ هذا العهد بدخول (عبدالرحمن بن معاوية) بلاد الاندلس حتى قضائه على آخر والٍ كان يحكمها، ومن أبرز شعراء هذا العصر هو يحيى الغزال.

يحيى بن حكم الغزال

وهو يحيى بن حكم البكري الجيَّاني المعروف بالغزال، ولد سنة 156هـ في مدينة جيَّان بالاندلس الواقعة بين غرناطة وطليطلة والتي وصفت بأنها مملكة جليلة معروفة بالمحارث والأخشاب، توفي الغزال سنة 250هـ وهو ابن أربعٍ وتسعين سنة، وقد لقب الغزال بهذا اللقب لحسنهِ وجماله، حتى قيل إنه ظل وسيماً إلى مراحل متأخرة من حياته، وتقرب من البيت الأموي بشعرٍ مدحَ فيه الأمير وغيره ممن البيت الحاكم، وقد كان معهوداً له بالإجادة والبراعة في النظم والذكاء الشديد؛ لذلك ضموه إليهم وقربوه منهم وتقلد بعض المناصب وكان سفيراً، ويذكر أنه دخل على الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط فحيّاه بقوله:

"جاء الغزال بحسنه وجماله"

فطلب منه الوزير أن يجيز ما بدأ به الأمير، فقال الغزال:

قال الأمير مداعباً بمقاله جاء الغزال بحسنه وجماله

أين الجمال من امرىءٍ أربى على متعدد السبعين من أحواله؟

كان الغزال معروفاً بالذكاء وحضور البديهة، واسع المعرفة، وقد كان متفاعلاً مع أحداث عصره السياسية والاجتماعية وجاءت أشعاره لتصور لنا حياته بكافة أبعادها وشخصيته المتعددة الجوانب، وفي مقدمة الأحداث التي مرت على الشاعر:

1. **قبضه أعشار الغلال في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط وتصرفه بها فأدى به ذلك الى السجن وفيه نظم قصيدته البائية التي يستعطف فيها الأمير ويطلب العفومنه ويتحدث عن استعداده لدفع الاموال التي تصرف فيها، ومطلعها:**

بعض تصابيك على زينب لا خيرَ في الصبوة للأشيبِ
إن تُرِدِ المالَ فإني امروٌ لم أجمعِ المالَ ولم أكسبِ
إذا أخذتَ الحقّ مني فلا تلتمسِ الرّبحَ ولا ترغبِ
قد أحسنَ الله إلينا معاً إن كان رأسُ المالِ لم يذهبِ

2. كان الغزال معروفاً بروح الدعابة وميله الى المرح في الأوقات الحرجة، ومن ذلك تصويره هيجان البحر في رحلته سفيراً الى بلاد (النورمان) حتى كادت السفينة تغرق ويهلك من فيها، وكانت هذه الحادثة البارزة في حياته، وهو يصف رحلته في أبياتٍ بارعة مخاطباً رفيق سفره المسمى (يحيى):

قال لي يحيى وصرنا بين موجٍ كالجبالِ

وتولتنا رياحٌ من دبورٍ وشمالِ

شقت القلعين وانبتَ ت عُرى تلك الحبالِ

وتمطى ملك الموت إلينا عن حيالِ

فرأينا الموت رأي الـ عين حالاً بعد حالِ

لم بكن للقومِ فينا يارفيقي رأسً مالِ

3. أما الحدث الثالث فيقع للشاعر بعد عودته من سفارته، حيث يرى أن زرياب يتمتع بنفوذٍ كبيرة عند الأمير، - وزرياب هو " أبو الحسن علي بن نافع ت 238هـ ، لقب بزرياب والذي يعني الطائر الأسود الغريد، وكان يدعي أن الجنَّ تعلمه الألحان وعليه فقد كان أول من أدخل الموسيقى والغناء العربي المشرقي إلى الأندلس" - وقد دخل في خصومة معه أدت بالغزال الى الرحيل عن الأندلس الى الشرق، حيث التقى بتلاميذ أبي نواس، وكان يرى ما هم عليه من تهوينٍ للشعر الأندلسي وشعرائه، حتى إذا دار الحديث عن أبي نواس الشاعر المبجّلِ عندهم، قال لهم من منكم يحفظ قصيدته:

ولما رأيتُ الشَّرب أكدَت سماؤهم تأبطت زقي واحتسبت عنائي

فلما أتيت الحان ناديتُ ربه فهبَ خفيف الروح نحو ندائي

قليل هجوعِ الليل إلا تعلةً على وجلٍ مني ومن نظرائي

فقلت: أذقنيها، فلما أذاقني طرحتُ إليه ريطتي وردائي

فأعجبوا بها كثيراً، وبالغوا في مدحها مبالغة كثيرة، فلما أفرطوا قال لهم: خفضوا عليكم، فإنه لي فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التي مطلعها:

تداركتُ في شرب النبيذِ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي.

ابن زيدون:

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي، ينتهي الى قبيلة مخزوم القرشية التي دخلت بلاد الأندلس، ولد بقرطبة سنة 394هـ وكان سليل أسرةٍ عريقة وكان والده من أعيان قرطبة، كان ابن زيدون ذا ثقافةٍ واسعة ملماً بعلوم عصره، فقد برع في الأدب شعره ونثره، فضلاً عن امتلاكه الثقافة الفلسفية، ولم يلبث أن نال شهرة واسعة في مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية.

حظيَ ابن زيدون بمناصب رفيعة، إذ تقرب إلى ابن جهور فكان سفيره وشاعره، وقد لقبه بـ "ذي الوزارتين"؛ لأنه كان ينوب عن الملك فضلاً عن كونه عالماً في الآداب.

لابن زيدون ديوان شعر منشور في القاهرة سنة 1932م، وله مجموعة رسائل منها: "الرسالة الجدية، والرسالة الهزلية، الرسالة البكرية، الرسالة المظفرية، الرسالة العامرية، الرسالة العبادية".

طرق ابن زيدون الموضوعات الشعرية التقليدية من مدحٍ ورثاءٍ وغزلٍ وعتاب، وهو بحق شاعر الغزل الاندلسي الأول، فقد هام ابن زيدون بولادة بنت المستكفي وهي الأميرة الشاعرة ذات الحسن والجمال، وتميزت بالثقافة والذكاء، وهي شاعرة الأندلس الأولى، وكان لها منتدىً أدبي في قرطبة يرتاده الأدباء والشعراء والوزراء فجمعت خيرتهم إلى منتداها وكان ابن زيدون من ألمع الشعراء الذين يرتادون الى هذا المنتدى، فنشأت بينهما مودةٌ ومحبةٌ تحولت إلى قصةِ حبٍ طغت على ماسواها من قصص الحب والغزل في الاندلس. لقد أحبت ولادة ابن زيدون وقالت فيه أجمل الغزل وأرقه، وأحب ابن زيدون ولادة وهام بها وقصَّر غزله عليها، ولعل أرق وأجمل ماقاله فيها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صُبح البينِ صبَّحَنا حَينٌ فقام بنا للحَينِ ناعينا
إن الزمان الذي مازال يُضحكُنا أُنْساً بقربِهم قد عادَ يُبكينا
غيظَ العِدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نُغَصَّ، فقال الدهرُ: آمينا.